

صفحات من التاريخ الاسلامي في اليمن في عهد الملك المنصور الرسولي

■ بقلم الاستاذ الدكتور سامي الصقار

تولى هذا الملك الحكم في اليمن وكان مؤسس الدولة الرسولية فيها، وقد عاشت مدة ٢٣٢ سنة أما اسمه فهو نور الدين عمر بن علي بن محمد بن هارون بن أبي الفتح الفسائي التركماني الملقب بالملك المنصور، المتوفى سنة ٦٤٧هـ - ١٢٥٠م.

ونظراً لطول حكم هذه الدولة، فقد اعتبرها بعض المؤرخين صنو الدولة العباسية في العراق (كالزركلي).

والتحق بالبيزنطيين، ويقال: ان بعض أحفاده هاجروا الى بلاد التركمان، واصهروا اليهم، فنسوا لغتهم، وأضاعوا هويتهم العربية بالزواج والاختلاط بالتركمان واتخاذ لغتهم.

والمعروف ان نور الدين ينتمي الى أسرة بدأت بجده محمد بن هارون الذي يقال: انه من ذرية جبلة بن الأيهم الفسائي، آخر ملوك الفساسنة في الشام والذي ارتد عن الاسلام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

حال فإن محمد بن هارون تمكن من جلب انظار الايوبيين في مصر اليه والى اولاده، فقربوهم.

وقد سحب بعضهم الملك الأيوبي «طوران شاه» في حملته على اليمن سنة ٥٦٩هـ وهو شمس الدين علي بن محمد، مع اولاده الحسن وعمر وأبي بكر وموسى.

وعلى اي حال فإن أول ذكر لبني رسول في اليمن، كان في عهد الحاكم الأيوبي المعز اسماعيل عندما حجز المعز الحسن رهينة لضمان إخلاص والده للأيوبيين.

وفي سنة ٥٩٨هـ، عين ابو بكر والياً على مدينة «وصاب» ومنح أخوه بدر الدين إقطاعاً قرب صنعاء، غير ان نجم بني رسول سطع في سنة ٩٠٦هـ عندما اقطع الحاكم الايوبي الناصر مقاطعة «حرض» و «الهية» في تهامة لحسن الذي ظهر اسمه في سنة ٦١١هـ بصفته اميراً عليهما، الى جانب أخيه نور الدين كمساعد له.

وهكذا وجد بنو رسول لأنفسهم مكانة مكيئة في جهاز الحكم الأيوبي في اليمن، رغم ان الأيوبيين ما كانوا لا يخافون على اليمن من أحد، كخوفهم عليها من بني رسول، لما فيهم من علو الهمة وبعد الصيت وحسن السياسة ومكارم الاخلاق (على حد قول المؤرخ ابن حاتم).

ولكنهم كعادة العرب، احتفظوا بشجرة نسبهم في سلسلة اوردها الخزرجي في «العقود اللؤلؤية» وللتوفيق بين نسبتهم الى التركمان واتخاذ لغتهم ونسبهم الى غسان، يروي المؤرخون قصة هجرتهم هذه الى بلاد التركمان، ويرى الفاسي في كتابه «العقد الثمين» ان لا منافاة بين النسبتين، لأنه يجوز ان يكون احد اجدادهم نزل بلاد التركمان، فنسب اليهم وسرت هذه النسبة الى اولاده من بعده، وبمرور الزمن هاجر محمد بن هارون الى العراق واستوطن بغداد، ويحمل معه النسبة الى قحطان، ثم تقرب الى الخلفاء العباسيين وحاز ثقتهم، ولا سيما من جانب الخليفتين المقتفي والمستجد.

وقد لاحظ الخليفتان امانته ورجاحة عقله وتقواه وعلو همته كما ذكر السيوطي، واختصه الخلفاء بمهماتهم وبحمل رسائلهم الى الشام ومصر، الأمر الذي استحق من أجله لقب «رسول» الذي غلب على اسمه، ثم هاجر من العراق الى الشام، ومنها هاجر الى مصر وبها توفي سنة ٥٨٠هـ.

في الحقيقة اعتاد المؤرخون الى نسبتهم الى التركمان او الى الفساسنة، بل ان بعضهم نسبهم الى الفرس مثل ابن المقرئ، اذ وجد في سلسلة نسبهم شخصاً اسمه «رستم» وهو اسم فارسي، وعلى اي

الملاحة في البحر الأحمر، لأهميته الاستراتيجية والاقتصادية، لأن البحر الأحمر هو شريان المواصلات الوحيد الذي يربط بين الشرق والغرب، وإن اقتصاد مصر يعتمد اعتماداً كبيراً على التجارة المارة في هذا الطريق، علاوة على أهميته البالغة للحجاج الذين تقع مسؤولية حمايتهم، وحماية الأراضي المقدسة على عاتقه وحده (أي صلاح الدين).

ومهما تكن الدوافع، فإن الأيوبيين قد غزوا اليمن، وكان في ركبهم بنو رسول الذين أحرزوا لأنفسهم مكانة متميزة فأحسنوا الاستفادة منها في الوقت المناسب، ومنها استغلال فرصة وصول الملك الأيوبي الجديد «وهو المسعود» إلى اليمن سنة ٦١٢هـ، فأحسنوا استقباله وعندما اضيفت إليه إمارة مكة المكرمة، عين علي بن رسول نائباً عنه فيها، وعين أخاه الحسن حاكماً على صنعاء.

وعلاوة على ذلك فإن بني رسول استطاعوا القضاء على حركات التمرد التي وقعت في اليمن، مما أثار حسد بعض الاعوان الذين أثاروا الخوف في نفوس الأيوبيين مما حملهم على اعتقال بني رسول وإرسالهم إلى مصر.

وفي سنة ٦٢٦هـ عين والي اليمن

ولا تكتمل الصورة بدون الحديث عن دوافع الأيوبيين لغزو اليمن، والتي يلخصها بعض المؤرخين، ومنهم «سمت» البريطاني فيقول:

١- كانت اليمن ميوعة بحركات معادية للدولة الإسلامية، إذ كان فيها الخوارج وفيها ازدهرت دول شيعية كالصليحية والزريعية، ثم ظهرت حركة عبد النبي بن مهدي الذي قطع الخطبة للخليفة العباسي، علاوة على وجود الأئمة الزيدية فيها، وهكذا فإن الوضع السائد في اليمن يجعل التحكم في مداخل البحر الأحمر بأيدي معادية للخلافة، الأمر الذي حمل الخليفة العباسي أن يطلب من صلاح الدين الأيوبي غزو اليمن، لإنهاء هذا الوضع الخطير.

٢- حاجة الدين لتوحيد أقطار الخلافة تحت راية واحدة، ليتسنى له استخدام مواردها البشرية والمادية في حربه ضد الصليبيين.

٣- حاجة الأيوبيين، وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي لإيجاد ملجأ أمين لهم، إذا اضطروا إلى مغادرة مصر هرباً من نور الدين زنكي، إذا ما تآزمت الأمور بين الطرفين على حد قول ابن الأثير.

٤- حاجة صلاح الدين لتأمين سلامة

وانتهت بنصر يمانى.

هذا من جهة، اما من الجهة الأخرى، فإن المنصور أحرز نصراً آخر في مواجهته الأيوبيين، اذ فاز بالحصول على تشريف رسمي من الخليفة المستنصر، بالولاية على اليمن وتوابعها، اذ سبق له ان أرسل في سنة ٦٣١هـ، وفداً الى بغداد مع هدية مناسبة الى الخليفة، والتماساً بمنحه ولاية اليمن وتوابعها، فمنحه الخليفة ما اراد شريطة ان يخرج المنصور بنفسه الى عرفات، فخرج لكن التشريف من الخليفة لم يصله، بسبب عدم وصول الركب العراقي الى مكة في تلك السنة، وانما وصل بعدئذ بالبحر عن طريق البصرة، وقد خرج المنصور بنفسه لتلقي موفد الخليفة.

وقد استمرت العلاقات طيبة بين المنصور والخلافة، خاصة بعد وصول كسوة الكعبة من بغداد في سنة ٦٣٢هـ، ومعها رسائل من الديوان العزيز، فاعتز بها المنصور وحملها معه الى اليمن بعد اداء مناسك الحج، ووافق وصوله الى صنعاء وصول رسول آخر من الخليفة على طريق البحر، وهو يحمل تأكيداً بتشريف السلطة اليه.

ثم ان والدة الخليفة المستنصر حجت

«المسمود» الأيوبي، والياً على دمشق، وأسند حكم اليمن الى مملوكه حسام الدين لؤلؤ الذي رفض تحمل مسؤولية الحكم، وعندها اختار «نور الدين عمر» كنائب مؤقت لحكمها، ولكنه استغل الخلافات التي قامت بين الأيوبيين، مما عزز مكانته مع الاستمرار على ولائه للأيوبيين، وفي الوقت نفسه اسند المناصب المهمة الى اتباعه، كما انه استغل الخلاف بين شريف مكة وبني ايوب، فساعد الشريف ضدهم، ولمس اهل مكة حسن السيرة للجيش الرسولي، مما ضمن له حكم مكة الى جانب اليمن، واتخذ لنفسه لقب «الملك المنصور» فضرب السكة بإسمه، وصارت له الخطبة في انحاء اليمن، ولكن الملك الكامل الايوبي بعث بالامدادات الى جانب حلفائه اشراف المدينة المنورة وحكام ينبع، وقد تمكنوا من استرجاع مكة المكرمة للحكم الأيوبي.

ولقد كانت هذه الأحداث بداية لمواجهة بين الملك المنصور الرسولي، والكامل، استمرت حتى سنة ٦٣٥هـ تخللتها حروب عديدة أسفرت عن عودة مكة الى الأيوبيين، كما أسفرت عن عودتها الى الرسوليين بمساعدة الشريف راجح، وقد تبودلت السياسة على مكة اكثر من مرة بين القوات اليمنية والقوات المصرية،

وعلى أي حال، فإن المنصور بعد ان صفا له الحكم في اليمن، بإبعاد الخطر الأيوبي عنه (وان بقي ذلك الخطر قائماً - كما سنرى - بالنسبة لمكة المكرمة)، فإنه عزز مكانته بحصوله على تشريف السلطنة من الخليفة، مما عزز حكمه في اليمن، وما حولها، اذ قام في سنة ٦٣٦هـ بتميز حكمه في بلاد «الشحر» وأحكم قبضته في السنة التالية (اي سنة ٦٣٧هـ) على بعض أقاليم اليمن النائية، فأرسل جيشاً لاحتلال حضرموت، لكن سوء معاملة بعض قواده للقبائل، أدت الى هزيمة ذلك الجيش.

وفي سنة ٦٤٦هـ قام المنصور بنفسه بحملة لتعزيز سلطانه في داخل اليمن، بعد ان خرج عليه احد أئمة الزيدية واتبعه كثيرون، فوقع القتال بين الطرفين، واستمر القتال سجالاً في السنة التالية، الا ان سطوة المنصور لم تتأثر بذلك، وبقي ولاته متمكنين من الحكم في طول البلاد وعرضها، من حضرموت الى مكة المكرمة، بل بلغت سلطته الى «عيداب» الواقعة في جنوب مصر، على الساحل الغربي للبحر الأحمر، على حد قول الفاسي المؤرخ.

ولكن الأيوبيين لم ينسوا مكة، وقداستها وأهميتها الدينية في دعم مكانتهم في العالم الاسلامي، اذ جهز الملك الكامل في

سنة ٦٤١هـ، فاستضافها المنصور ومن معها، وجهازها بهدايا ثمينة واحسن خدمتها ومرافقيها، وفي سنة ٦٤٧هـ، خصه الخليفة المستعصم بوفد لم تذكر المصادر الهدف من مهمته، ولكن المنصور أحسن استقباله بكثير من الإكرام والتعظيم.

وعلاوة على حسن علاقة بني رسول مع الخلافة، فإن المؤرخ ابن حاتم الياامي فيشير الى ان بني رسول كانت لهم صولات وجولات في ظل الحكم الأيوبي، في الدفاع عن البقاع الخاصة للسلطة الأيوبية، ولا سيما في مواجهة الأئمة الزيدية، فقد استطاع بنو رسول ايقاف زحفهم، وإنقاذ صنعاء من هجماتهم، بل استطاع تملك بعض ديارهم ومنها «ذمار».

أما بعد ذلك فقد تمكن المنصور من توطيد الحكم في مختلف انحاء اليمن، ولا سيما في المدن الكبرى، مثل تعز وصنعاء، واستولى على معاقل اليمن، وتسلمها من حكامها المعينين من قبل الأيوبيين، ثم مضافة الأئمة الزيدية الذين أقرهم على ما تحت ايديهم من البلاد، وكان همه الاول هو حماية اليمن من عودة الأيوبيين اليها، ولذلك كان يستقطب ولاء الأمراء والأعيان بما يقدمه لهم من الإكرام.

الذهب والفضة، وصارت أيام تلك السنين لهم مواسم واعياداً، لكثرة الصدقات التي خصصها المنصور لأهل مكة، فضلاً عن مآثره الكثيرة في المدينة المقدسة، ومنها انشاؤه فيها رباطاً، كما بنى مسجد التعميم وعمّر دار ابي بكر الصديق رضي الله عنه وجهرز الكعبة المشرفة بقناديل الذهب والفضة، علاوة على مدرسة انشأها بمكة، وجعلها للحديث ولدراسة الفقه الشافعي، والمعروف عنه انه كان حنفي المذهب، ثم تحول الى مذهب الامام الشافعي رحمه الله، اما في اليمن فإن مآثره كثيرة ولا سيما في المساجد التي انشأها في طول البلاد وعرضها، كما انشأ المدارس في مختلف المدن اليمانية، ومنها تعز والجند وزبيد العليا والسفلى وعدن، اما المساجد التي أقامها فإنها كثيرة جداً.

ولقد لخص المؤرخ الفاسي شخصية المنصور بقوله: انه كان ذا هيبة وشجاعة وأقدام وعزم فدانت له البلاد والعباد، مما يدل على قوة شخصيته وشدة بأسه بعيداً عن العنف والظلم، وقد ظل هذا دأبه حتى وفاته مفتلاً على يد بعض مماليكه وحراسه سنة ٦٤٧هـ وقد خلفه ابنه الملك المظفر يوسف، هذا وينبغي عدم الخلط

سنة ٦٣٨هـ جيشاً صحبه الشريف «شiche» أمير المدينة المنورة، لأخذ مكة من الرسولين، فأخذوها، مما حمل المنصور على تجهيز جيش في سنة ٦٣٩هـ بقيادة الشريف علي بن قتادة لاسترجاع المدينة المقدسة، ثم توجه اليها بنفسه، الأمر الذي حمل الجيش المصري وحلفائه على الهرب بدون قتال، وعندها عزز المنصور علاقاته مع أمير «ينبع» الذي صار من اتباعه واشترى منه قلعة ينبع، وأمر بتخريبها، ليقطع الطريق على الأيوبيين، ويحرمهم من استخدامها، ومما صنعه في هذه الحملة انه نشر العدل بمكة، وأبطل عن أهلها المكوس والجبايات، وأزال المظالم التي كانوا يتعرضون لها وكتب بذلك منشوراً علق على مبنى زمزم مقابل الحجر الاسود، كما رتب الأمور الادارية والعسكرية في مكة التي بقيت في ولايته وفيها نوابه حتى وفاته.

وقد اختص المنصور مكة بوال طيب السيرة، هو فخر الدين اياس السلاج الذي استمر في ولايتها من سنة ٦٣٩هـ حتى سنة ٦٤٦هـ، تمتع اهل مكة خلالها بكثرة الخير، ووفرة الرزق، ورخص الأسعار، فكسبوا الأموال، وبنوا الدور، واقتنوا حلي

٦- يحيى بن الحسين بن القاسم «غاية الأمانى»
القاهرة، ١٩٨٦ ج ١/١-٣٢٢ .

٧- الفاسي، محمد بن أحمد «العقد الثمين»
القاهرة ١٩٥٨-١٩٦٩، ج ١/١-١٢٨ .

٨- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر «تاريخ
الخلفاء» القاهرة ١٩٥٢، ص ٤٣٧-٤٤٢ .

٩- ابن الأثير عز الدين علي «الكامل في التاريخ»
لايدن ١٨٥١-١٨٧٦، ج ١١/١٤٥ .

١٢- كتاب المستشرق G.R, Smith بعنوان
Ayyubids and Rasulids M Yemen, London
1978, 83-90.

١٣- مقال كتاب المستشرق G.R, Smith في
مجلة Islamic Culture لسنة ١٩٦٩ ص ١٧٥-
١٨٨ .

بينه وبين ملك آخر حكم اليمن عام ٨٢٧-
٨٣٠.

♦ المصادر الأساسية:

١- ابن الديبع عبد الرحمن بن علي، مخطوط
«قرة العيون في اخبار اليمن الميمون» في
مكتبة جامعة كمبرج.

٢- ابن حاتم اليامي، محمد بن حاتم الهمداني،
«السمط الفالي الثمن» لندن ١٩٧٤، ص ١٦٠-
٢٤٠ .

٣- الزركلي خير الدين «الاعلام» طبعة بيروت
١٩٤٨، ج ٥/٥٦ .

٤- الأكوغ، اسماعيل بن علي «المدارس الاسلامية في
اليمن» ، صنعاء ١٩٨٦، ص ٣٨، ٤٢، ٥٣، ٥٧ .

٥- الخزرجي علي بن الحسن «العقود اللؤلؤية»
طبعة لايدن ولندن ١٩٠٦-١٩١٨ .

